**التنوير في الفكر الغربي**

عرفت أوروبا في القرن الثامن عشر حركة فلسفية ، ثقافية وعلمية هي حركة الانوار ، وتكمن الأهداف الاساسية لهذه الحركة في تطوير المعارف المختلفة عن طريق تشجيع الإنجازات العلمية والثقافية ، وإصلاح المجتمع وتوفير حياة الرفاهية للإنسان الذي ينبغي أن يمارس حريته ويتمتع بحقوقه داخل دولة عادلة . وبناء على هذه المعطيات حمل عصر الأنوار لواء التجديد والحداثة ، فاحتل مكانة مميزة داخل المجتمعات الغربية بما أحدثه من تغييرات ملموسة مست بنى هذه المجتمعات ، وما الثورة الفرنسية إلا ثمرة هذا العصر بكل خصائصه وطموحات مفكريه .

أذ أن الحركة التنوير الفرنسية المتمثلة بفلسفة جون لوك التجريبية لها دوراً كبيراً في تدعيم الروح العلمية في فرنسا ، فقد تأثر فلاسفة الأنوار بتوجهه التجريبي في مجال المعرفة وكذلك أفكاره عن الحرية والتسامح في المجال ونذكر من بين هؤلاء مونتسكيو ، فولتير وغيرهم . فقد بذلت جهوداً كبيرة من أجل تمهيد الأرض لثورة 1789 . لذلك وأن تبدأ حركة التنوير في بلد تسود فيه حرية التفكير وهذا البلد هو انجلترا .

فإنجلترا لم تبدأ بهجوم عنيف على الكنيسة والدولة كما حدث في فرنسا ، وأنما حركة فكرية موجهة ضد الفلسفة التقليدية ونظرياتها في مجال العلم والمعرفة . ومما تجدر الاشارة إليه هو أن انجلترا كانت المركز الأول للتنوير حيث هاجر إليها فلاسفة التنوير الفرنسيون وتأثروا بنهضتها العلمية والثقافية وخاصة بعلم نيوتن وبفكرتي الحرية والتسامح ، وقاموا بنشرها والدفاع عنها في فرنسا . " أن الفرنسيين قد اعترفوا بفضل جون لوك واسحق نيوتن ، من حيث إنهما الروحان الموجهان لتنويرهم ".

والنقد الذي تميز به عصر التنوير ، رافقه عنصر أخر قرين به وميزه عن بقية العصور ألا وهو السخرية والهجاء . فبرز مونتسكيو في رسائله الفارسية حيث وصف الرهبان بالدراويش ، والبابا بالساحر ، والطقوس الدينية بالخرافات والأساطير . وقد أمنت الحركة الفكرية والثقافية بفكرتين هما : الحرية والكمال ، حيث عبر فولتير عن الحرية أفضل تعبير مؤاده أن " سعادة الانسان هي في العقل والحرية " . والثاني يقول فيه " قد اختلف معك في الرأي ، ولكنني على استعداد لأن ادفع حياتي ثمناً لحقك في الدفاع عن رأيك " .

ولذلك فمفهوم الحرية عند مونتسكيو هو المعيار الأساسي لمؤلفه في تقيمه للعلاقات السياسية فهو يدعو الى الحرية الحلوة ، المطابقة للعقل وللإنسانية ، وللطبيعة ولهذا فكتابه مشبع من أوله الى أخره بالكراهية للاستبداد . فعد أن الانظمة الاستبدادية قائمة على القهر وسلب الحريات الفردية ، وأعتبر أن ضمان هذه الحريات على أحسن وجه ممكن ، هو الهدف الأساسي الذي ينبغي تحقيقه داخل الدولة ، ولاينبغي أن نتصور أن الحرية السياسية هي أن يعمل الفرد مايريد ، أي أن يتصرف على وفق أهوائه الشخصية ، وإنما الحرية هي أن يريد فعل ما ينبغي عليه أن يريد ، وأن لا يكره على فعل ما لاينبغي أن يريد فالحرية بمفهومه هي الحق الذي يخول للمواطن العمل بكل ما تمسح به القوانين ، لهذا ينبغي أن يدرك المواطن ، تمام الادراك أن الاقدام على فعل ما تمنعه القوانين معناه أن الجميع سيبيحون لأنفسهم أنتهاك هذه القوانين عندئذ تتلاشى الحرية داخل الدولة . فلذلك طالب مونتسكيو بفصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية ، عن السلطة القضائية من أجل ضمانة حرية الفرد. ونتيجة لذلك أصبح فولتير بمثابة الممثل والرئيس الصوري للعصر الجديد ، أولاً وقبل كل شيء لأنه كان من الأوائل الذين وجهوا سهام موهبتهم النقدية الحادة القطع ضد استبداد الكنيسة وسيطرة قوانينها الجائرة والجاهلة وضد هؤلاء الذين يديرون ويحكمون بلده .

ففي مذهبه الاجتماعي يتجاوز سائر نظريات القرن الثامن عشر الاخرى ، فالنظام الأكثر انصافاً وعدلاً ،من منظوره ، هو النظام القائم على الحرية والملكية ، والى هذين المبدأين يضيف أحياناً مبدأ ثالثاُ : المساواة . إذ كتب بهذا الصدد : " أن الحرية تتمثل في ألا يخضع المرء إلا للقوانين " وقد دافع عنها بلا كلل أو ملل . وكان يرى فيها في المرتبة الأولى حرية الشخص الانساني . فالعبودية تتنافى والطبيعة . وأما الحرية في المقام الثاني عنده ، حرية الكلام والصحافة ، الضامنة لسائر الحريات الأخرى ، وذات الأهمية الحيوية بالنسبة إليه بالذات . وهي أيضاً حرية الضمير ، النقيض المنطقي للتعصب الكاثوليكي الذي كان فولتير يكرهه من قرارة نفسه . وأما الموسوعة عند ديدرو هي في نواح معينة ، رمز لعصر التنوير في القرن الثامن عشر . التي تعد أشهر ظاهرة فكرية مميزة لذلك العصر ، حيث لم تكن سوى القلة من الناس يعرفون بالموسوعيين ، فالموسوعة موضوع جديد كل الجدة .

والحق أن الهدف من الموسوعة هو تجميع كل المعارف المتناثرة فوق ظهر الأرض ؛ لكي نقدم خيوطها العامة وبنيتها للناس الذين نعيش معهم ، وننقل ذلك الى أولئك الذين سيأتون من بعدنا ، حتى يكون عمل القرون الماضية مفيد للقرون اللاحقة . وعبر ديدرو في ( الموسوعة ) عن ( السلطة السياسية ) بقوله : " لم يتلق أنسان من الطبيعة الحق في أن يتحكم في الأخرين . أن الحرية هبة من السماء ، ولدى كل فرد من النوع نفسه الحق في أن يستمتع بها كما يستمتع باستخدام العقل ".

وقد ساهمت الموسوعة بترسيخ رؤية جديدة لمستقبل الانسان ، قائمة على العقل والعلم والتقدم ، وفي نشر افكار الحداثة والأنوار ، كما تصورها الموسوعيين ، فدفعت من وجهة نظرهم عجلة التقدم أشواطاً الى الأمام .

ومن فرنسا أنتقلت فلسفة الأنوار الى المانيا . فكان بعض العلماء الفرنسيون أعضاء في الأكاديمية الملكية في بروسيا مثل ديدرو . ثم تفتحت ألمانيا لحركة التنوير الانجليزية وتأثرت باتجاهاتها النظرية في مجال الفلسفة والأدب والشعر. ومن الجدير بالذكر أن عملية التنوير بشأن الحياة والحرية والسعادة ، كما تبنى قادتها من بنيامين فرنكلين الى توماس جيفرسون شعارات التنوير حول العقل في تناوله للعلاقة بين الدين والعلم . وحول نظام الحكم الذي يفترض أن يحدد أولوياته في تجديد مصلحة المحكومين لا الحاكمين . وتحديد حدود المواطن بوصفه حقوقاً وواجبات في اطار المجتمع السياسي الذي انبثق داخل الثقافة الليبرالية التي سادت أوروبا في العصر الحديث .